مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- من بيداغوجيا الكفايات إلى بيداغوجيا الإدماج
- بيداغوجيا النجاح: قراءة في المنطلقات والأهداف
- اللغة والأدب: أية علاقة؟
- المراهقة والتحولات الأسرية في الوسط القروي
- القراءة المنهجية للنص النظري: إشكالات وتساؤلات
- فشل الإصلاحات التعليمية بالمغرب: الأسباب والحلول

العدد الواحد والأربعون- سبتمبر 2009

التعليم التقليدي اليهودي في المغرب

• د. رشيدة برادة

جامعة محمد الخامس ـ السويسي

تمهيد

كان التعليم التقليدي اليهودي قبل الحماية، على غرار التعليم التقليدي في المجتمع المغربي، يسير على نفس النهج، من حيث مؤسساته، وطرائق تعليمه، وتشبث اليهود بهويتهم وتقاليدهم وعاداتهم وحنينهم إلى التعليم التقليدي الحامل لأبعاد دينية، مع الارتباط ببعض الثوابت المغربية، وذلك قبل دخول المستعمر الفرنسي سنة 1912 حيث سيأخذ التعليم اليهودي أبعادا عصرية جديدة. فقد كانت السياسة الاستعمارية تهدف إلى " العمل على انعتاق اليهود والسهر على تقدمهم المعنوي، وتقديم يد المساعدة والدعم لكل الذين يعانون باعتبارهم يهودا"[1]

لقد كانت الحماية تعمل على توسيع مجال التعليم للجالية اليهودية باعتبارها أقرب إلى التعامل وأسرع للاستجابة وكذلك للدور الحيوي الذي لعبته في تثبيت نظام الحماية في المغرب.

أ – اليهود المغاربة: يعود تاريخ استيطان اليهود ببلاد المغرب إلى زمن بعيد، قد يصل إلى ما قبل الإسلام[2]، إلا أن بعض اليهود هاجروا إلى أرض المغرب أيام الفتح العربي، كما أن مجموعة منهم جاءت إلى المغرب بعد اضطهادها من طرف الإسبان في بلاد الأندلس، حيث استقرت هذه المجموعة الأخيرة «في الموانئ والمدن الداخلية. وقد حملوا معهم لغتهم القديمة القشتالية، وعلومهم و مؤسساتهم الجماعية كما حددتها مراسيهم الربية «تقنوت» و أعرافهم وعاداتهم، وروح المبادرة التي جعلت منهم عكس إخوانهم يهود المغرب المحليين، مجموعة اجتماعية ثقافية مهيمنة، حيث استقطبت النخبة المثقفة وبرجوازية النبلاء من هذه الطبقة التي لعبت دورا من الأهمية بمكان سواء في المجالات التجارية أو المالية أو السياسية»[3]

هكذا استطاعت هذه الطوائف اليهودية التي اختارت المغرب موطنا لها أن تتغلب على العديد من الاختلافات في التقاليد والعادات، ذلك أن الطائفة الأخيرة، هي التي انحدرت من بلاد الأندلس، كان لها وقع قوي بالنسبة للمجموعة المحلية باعتبارها قادمة من بلاد أكثر حضارة وأكثر تقدما بالنسبة لبلاد المغرب. هذا ما جعلها تفرض سيطرتها حتى على مستوى التقاليد والعادات، كقضية الذبائح مثلا والتي حدث بشأنها نزاع «بين اليهود المحليين و المهاجرين من إسبانيا في موضوع يتعلق بالذبائح، خصوصا في شروط اختيار رئة الحيوان المذبوح و انتهى هذا النزاع بانتصار رأي اليهود المهاجرين من إسبانيا، وأصبح قاعدة مشتركة معتمدة لدى كل الطوائف »[4].

لقد ظهر تفوق هذه الطائفة التي نزحت من الأندلس، بالخصوص، في كونها تضم أغلبية نخبة مشاهير اليهود بالمغرب، «فمنهم علماء في الشريعة و سفراء ورجال أعمال و مستشارو الملك و قناصل و ملحقون تجاريون »[5].

إلا أن الرابط الديني كان هو المتحكم في ربط العلاقات وطمس الخلافات بين المجموعتين، وإن كانت المجموعة المهاجرة من بلاد الأندلس أكثر تأثيرا وهيمنة، خاصة في ميدان الاقتصاد[6] والعلوم الربية؛ كما ظلت اللغة العبرية هي لغة الشعائر الدينية ولغة التعليم التقليدي لكل يهود المغرب[7].

وقد عاشت الطائفة اليهودية بالمغرب نوعا من الاضطهاد والابتزاز، وتحمل أداء الجزية في مقابل النفي أو الإسلام[8].

بالرغم من عدم تكافؤ الوضع بين المسلمين واليهود، فقد استطاعوا التعايش «في تعاون مثمر تجمعهما الطمأنينة والسلام في غالب الأحيان باستثناء فترات العنف والغضب... أثناء غياب النظام والسلطة »[9].

كما كان المغرب، كغيره من البلدان العربية الإسلامية، موطنا لكثير من الديانات السماوية، حيث كانت تنتظم في نسيج المجتمع المغربي مختلف الطوائف الدينية ومن بينها اليهودية؛ ذلك أن تسامح الإسلام كان لا يسمح بالقضاء على الديانات الأخرى، وبالتالي عدم إقصاء ثقافتها ومعتقداتها، لكن في حدود عدم تجاوزها لما من شأنه أن يمس سيادة الدولة. فما هو أساس ثقافة هذه الطائفة اليهودية؟ وما هو نوع التعليم الذي كانت تعتمده داخل المغرب؟.

استطاع يهود المغرب المحافظة على المعتقدات الدينية وتنظيم التعليم وفق ذلك، مع إيمانهم العميق بالتلمود والزهر، مما جعل عقليتهم تتميز بميزات دون غيرها[10].

ب – **المؤسسات التعليمية اليهودية العتيقة**: يمكن أن نميز في التعليم اليهودي العتيق الأنواع التالية:

ب / 1 ـ أصلا أو الحدر[11]، ويشبه الكتاب عندنا؛

ب / 2 ـ تلمود توره؛

ب/3 ـ بار مصواه – مرحلة بعد الابتدائي؛

ب/4 ـ اليشفاه أو التعليم العالي؛

ب/5 ـ التعليم المستمر؛

ب/6 ـ التعليم الليلي.

ب /1 – أصلا أو الحدر: وهدف هذه المؤسسات هو تعليم الطفل القراءة والكتابة وحفظ نصوص من التوراة والصلوات المتعددة، ثم قراءة التوراة فهما وشرحا، وقراءة التفاسير خصوصا تفسير راشي[12] والتلمود[13]. ذلك أن الهدف هو«المشاركة في العبادة واكتساب التقاليد والتقيد بنظام التعاليم أوامر ونواهي»[14].

كان يقوم بوظيفة التعليم في «أصلا» معلم لا يمتلك كفاءة أو تكوينا، كما لا تقوم بتعيينه جهة من الجهات، ولا ينص على وظيفته التعليمية أي قانون، «وليس من الغريب أن يغير المعلم مهنته عندما يملك إمكانية ما، حيث ينتقل من تعليم «براشا»، ـ شرح نص من التوراة – إلى تجارة الأثواب، ومهنة صناع القراشل والخياطة، إلى إسكافي أو صائغ متمرن »[15].

أما فيما يخص طريقة التعليم عند اليهود، فهي لا تختلف عن الطريقة المتبعة في» لمسيد» لدى المسلمين المغاربة، حيث كان الطفل يتعلم «القراءة لكي يتمكن في النهاية بأن يشارك في أقرب وقت ممكن في قداس البيعة، ويكون التدرج على الشكل التالي: الاكتساب الآلي لقراءة الأحرف والحركات والكلمات، والتدريب المكثف لقراءة نص مقدس»[16].

لقد كان هذا التعليم الأولي عند اليهود يركز في المرحلة الأولى على تعلم القراءة ومعرفة اللغة والنحو، خاصة وأن هذه القراءة تتعلق بنص مقدس ـ التوراة ـ والذي يستلزم قراءة جيدة خالية من الأخطاء. أما تعلم الكتابة عندهم فيأتي في مرحلة متأخرة «لاعتبارها غير ضرورية في المرحلة الابتدائية لمتابعة الدراسة»[17].

لذلك كان الاعتماد في التعليم اليهودي على المراقبة الشفوية، حيث « التعليم في معظمه شفوي، إن لم يكن مقصورا عليه، فهو لا يعرف أصلا تمارين كتابية وللتأكد من أن الدروس والمعارف التي درست قد تم استيعابها، وتحصيلها في الذاكرة، فإن الوسيلة الوحيدة هي المراقبة الشفوية أو التسميع »[18].

كان هذا التعليم عاما وإجباريا، إذ حرص الأحبار على استمرارية التعليم حتى سن البلوغ، ولم يكن بإمكان جميع التلاميذ أن يستمروا في دراستهم العليا، فطائفة منهم تتجه نحو الأعمال المهنية التي يمارسها آباؤهم، عند بلوغهم العقد الثاني من العمر؛

ب/2 تلمود توراه: ترجمتها دراسة الشريعة، وهو بناء عام تسهر عليه الجالية، يضم مجموعة غرف، يسير كل غرفة معلم، يتقاضى أجرته من المجموعة. والفرق بين «أصلا»، و الحدر، وتلمود توراه، أن الآباء هم

الذين يؤدون أجرة المعلم، وتؤدي المجموعة (اليهود) في الثاني نظرا لفقر التلاميذ، وقد استعمل الاسمان فيما بعد دون تفرقة، خصوصا بعد الحماية، حيث أصبحت هذه المؤسسة عصرية ومنافسة لمدارس الاتحاد الإسرائيلي؛

ب / 3 بار مصواه: بعد أن ينهي الطفل تعليمه الابتدائي، يقام له حفل يسمى «بار مصواه»، ومعناه ـ الرشد الديني ـ، أي أنه أصبح قادرا على القيام بالواجبات التي تأمر بها التوراة «فهو كالراشد مسؤول عن أفعاله، ويشارك في شعائر البيعة مع من هم أكبر منه سنا، بنفس الحقوق والواجبات»[19]؛ وفي هذا الحفل يرتدي الطفل لباسا جديدا خاصا بهذه المناسبة «ويقود اليافع القداس يوم الاحتفال، ويقدم درسا، وهو عبارة عن وعظ حقيقي يبدأ بمليصاه – فاتحة من النثر المسجوع ـ، تدور حول مبحث طويل لآية توراتية، تتضمن نصوصا تلمودية، وموضحة بقصص وعظية، ويقرض هذا المقطع الأدبي تحضيرا جادا، وعلى الفتى أن يحفظه عن ظهر قلب»[20].

بعد هذا الحفل البهيج يصبح الطفل الراشد[21] أمام اختيارين: تعلم مهنة يكتسب منها قوته، أو متابعة دراسة «اليشفاه» إذا كان يتوفر على إمكانيات لذلك؛

ب/ 4 اليشفاه[22] أو التعليم العالي: بالنسبة للتعليم العالي (يشفاه)، يتم فيه تعميق دراسة التلمود والتوراة، وتقرأ الكتابات الأخرى مثل المدرشيم والزهر[23] والتفاسير المتعددة، ولم تكن الدراسة محددة بسن معين أو بعدد السنين.

أما بالنسبة للأستاذ الذي يقوم بوظيفة التعليم باليشفاه، فهو يكون معروفا بعلمه وأخلاقه وفضله، كما يكون مميزا عن معلمي «الحدر»، أجرة وعلما، وأيضا يتوفر على مؤهلات تمكنه من القيام بعدة خدمات ووظائف لا يتم أغلبها بالمجان كالختان مثلا والنسخ والذبح...[24].

أما الطلبة الذين يلتحقون باليشفاه فهم غالبا ما يكونون من مناطق بعيدة أو نواح مجاورة، حيث يتوفر لهم المأوى والطعام عند معلميهم، وأحيانا تزودهم «اليشفاه» بكتب الدراسة. وتقوم العلاقة بين المعلم والمريد في «اليشفاه» «على الاحترام المطلق و التبجيل. والمريد هو خادم للمعلم ومدين له بكل وقته خارج ساعات الدراسة»[25].

يدور التعليم بـ«اليشفاه» على محورين أساسيين مختلفين:

* الأول يعتمد بالأساس على الشريعة وما يتعلق بها من أوامر ونواهي وما يعتمد عليها من أدبيات وتشريعات؛

* الثاني يسعى إلى تعميق المعرفة لدى الطالب وجعله متمرنا على الجدل والمناظرة. وكل ذلك يتم وفقا لطرق تقليدية لا يختلف فيها التعليم في «الحدر» عن التعليم «باليشفاه» حيث «يبدأ دائما بحفظ فقرات من

التلمود أو» الهلخا» قبل كل شيء آخر، ويدرك المعلم في هذه المرحلة ما يمكن أن يقدمه الفهم إلى الذاكرة من مساعدة، ويعلق على النص، ويضع في حيز التطبيق الجدلية التلمودية ويستعمل كل إمكانيات النقاش والمماحكة»[26].

كما كان المعلم يلجأ إلى تيسير المادة التي يريد من الطالب تحصيلها وذلك بتلخيصها أو نظمها في نثر مسجوع، خاصة ما يتعلق منها بأحكام الذبح الشرعي.

وكان هذا التعليم عاما وإجباريا، إذ حرص الأحبار على استمرارية التعليم حتى سن البلوغ، ولم يكن بإمكان جميع التلاميذ أن يستمروا في دراستهم العليا، فطائفة منهم تتجه نحو الأعمال المهنية التي يمارسها آباؤهم، عند بلوغهم العقد الثاني من العمر؛

ب/ 5 التعليم المستمر: سمي هذا النوع من التعليم بالمستمر لأن المجتمعات اليهودية كانت تعرف نوعا من التكوين العلمي بعد مرحلة النضج، وذلك «عن طريق الوعظ أيام الاحتفالات كيوم السبت والأعياد، والحلقات الليلية التي تتم فيها دراسة التوراة والزهر والموسار- علم الأخلاق الربي- وأغاني البيوطيم – الحان صوتية مرتبطة بالشعر»[27]

وغالبا ما يقوم بهذه الوظيفة مرشد روحي، تختاره الجماعة وقد يكون «قاضيا أو معلما في اليشفاه أو شخصا آخر أو صانعا أو تاجرا »[28]، يكون همه هو تثقيف وتكوين المريدين الراشدين عن طريق خطب وعظية يلقيها وسط جمع من العامة بطريقة مبسطة تكون في مستوى الجميع؛

ب/ 6 التعليم الليلي: يعد التعليم الليلي عند اليهود من الأنشطة الثقافية التي ترتبط بالعبادات والدين، على اعتبار أن الإنسان لا يكتسب معرفته الأساسية الا أثناء الليل[29]، حيث « ينكب أعضاء الزوايا الذين يطلق عليهم – أخبروت رابي شيمعون باريوخاي – أثناء الثلث الأخير من الليل على قراءة الزهار...، وتجتمع جماعات أخرى في الساعات الأخيرة من الليل قبل صلاة الصبح لسماع دروس الموسار- علم الأخلاق الربي – التي يلقيها أحد الأحبار، حيث يقرأ ويترجم ويحلل ويعلق على أحد المؤلفات في هذا العلم »[30]؛ وعادة ما كان محبو الأشعار الدينية يجتمعون حول المعلم ومريديه وغالبا ما يكون السهر ليلة الجمعة.

ويتيسر لأبناء الطبقة الموسرة بالإضافة إلى ذلك إمكانية اختيار معلميهم[31].

أما بالنسبة للفتاة اليهودية فإنها لم تنل نصيبها من التعليم، إذ كانت تقتصر على القيام بالأعمال المنزلية وتربية الأبناء[32]، حيث إن التعاليم الدينية لدى اليهود تجعل الفتاة « غير خاضعة لضرورة المشاركة في القداس وهو الموضوع الأساسي للتعليم، فهي معفاة من تعلم التوراة أو التلمود »[33]، باستثناء بنات بعض الحاخامات. إن مؤسسات التعليم العربي ومؤسسات التعليم اليهودي التقليدي، رغم بساطتها وتفاوت درجاتها، كان لها دور أساسي في تكوين الناشئة، وغرس أسس العلم في بلاد المغرب على أساس العقيدة والدين والتعامل، الأمر الذي كان يتطلبه المجتمع التقليدي الذي دأب على تقدير التعليم، والرفع من شأن العلماء.

المراجع

1. شحلان أحمد (1986)، التعليم اليهودي في القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء.

2. الزعفراني حاييم (1987)، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان و عبد الغني أبو العزم، طبعة الدار البيضاء.

3. H. ZAFRANI :(1969). Pédagogie Juive en terre d'Islam; Paris.

4. Pierre FLAMAND (1958). Quelques manifestations de l'esprit populaire dans les Juiverie du Sud -Marocain , Casablanca .

5. GAUDFROY-Demonbynes (1928). l'œuvre français en matière d'enseignement au Maroc, Paris geutener.

الهوامش

1 ـ تقرير رئيس مصلحة التعليم « وضعية التعليم العمومي بالمغرب». (AEP ، CPC ، 403, 101 – 93.pp).

2 ـ شحلان أحمد، التعليم اليهودي في القرن التاسع عشر، ص.207، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1986.

3 ـ الزعفراني حاميم ، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان و عبد الغني أبو العزم، ص14 طبعة الدار البيضاء، 1987.

4 ـ نفسه ، ص. 14 .

5 ـ نفسه، ص.15-14.

6 ـ جرمان عياش، م.س،ص.114

7 ـ الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ص.21.

8 ـ نفسه ، م.س.، ص 15.

9 ـ الزعفراني، م.س.، ص 15.

10 ـ أحمد شحلان، مرجع سابق، ص 208.

11 ـ أطلق يهود المغرب لفظ «أصلا» على مكان تعليم الأطفال، لأن أصل التعليم كان يتم بالبيعة، و البيعة كانت تسمى عندهم «أصلا» أي مكان الصلاة، وظل هذا الاسم يطلق سواء كان التعليم بالبيعة أو في دكان أو غرفة. أما كلمة «حدر» و معناها بالعبرية : الغرفة، فهي من أصل الشكنازي (يهود اوربا الشرقية) أي هي التسمية التي أطلقها يهود أوربا الشرقية على مكان تعلم أطفالهم، ثم شاعت فيما بعد و استعملت عند يهود المغرب أيضا.

12 ـ راشي،مختصر اسم الحبر شلمة بن اسحق (1105-1040)، و يعتبر من شراح التوراه و التلمود عند اليهود.

13 ـ يوجد تلمودان : تلمود بابلي و تلمود بروشليمي. و التلمود هو كتاب الإرث الشفوي اليهودي الذي خلفته الأجيال و كان في الأصل تفاسير على التوراة، وهو بالعبرية و الآرامية و يتكون من قسمين هما : المشنة و الجماري.

14 ـ الزعفراني: م.س.ص: 61.

15 ـ الزعفراني م.س.، ص: 63.

16 ـ نفسه، ص: 64.

17 ـ نفسه، ص 64.

18 ـ نفسه، ص: 66.

19 ـ نفسه، ص: 66.

20 ـ نفسه، ص: 67.

21 ـ يبدأ سن الرشد الديني لدى الطفل اليهودي حوالي 13 هناك أطفال يحق عليهم الرشد الديني قبل بلوغهم هذا العمر نتيجة تفوقهم و نبوغهم العقلي.

22 ـ يشفاه هي عبارة عن مؤسسة وقفية أو مؤسسة أنشئت بقرار من طرف مجلس الجماعة، انظر الزعفراني، م.س ص: 66.

23 ـ المدرشيم : دراسة النصوص التوراتية دراسة معمقة، و الزهر أو (كتاب الأنوار) فهو كتاب ذو نزعة صوفية، و هو في الأصل تفسير للتوراه، و ينتسب إلى الربي سيمون بن يوحاي و ابنه اليعزر.

24 ـ الزعفراني، م.س. ص: 66.

25 ـ نفسه.

26 ـ الزعفراني، م.س، ص: 57.

27 ـ نفسه، ص: 70.

28 ـ نفسه، ص: 72.

29 ـ نفسه.

30 ـ نفسه، ص: 73.

31- H. ZAFRANI : Pédagogie Juive en terre d'Islam; Paris. 1969. p. 43.

-Pierre FLAMAND : Quelques manifestations de l'esprit populaire dans les Juiverie du Sud -Marocain , Casa 1958 .

32- GAUDFROY-Demonbynes : l'œuvre français en matière d'enseignement au Maroc, Paris geutener.1928, p. 187.

33 ـ يوجد تلمودان: تلمود بابلي وتلمود بروشليمي. والتلمود هو كتاب الإرث الشفوي اليهودي الذي خلفته الأجيال وكان في الأصل تفاسير عن التوراة، وهو بالعبرية والآرامية ويتكون من قسمين: المشنة والجمارى.